أثر الذاكرة الجمعية في صياغة النقد الأدبي في العصر الجاهلي
(قراءة في آليات الحفظ والتقييم)

ميثم رحيم شغاتي

جامعة ميسان/ كلية التربية الأساسية/ قسم اللغة العربية

mrss76.2022@gmail.com

https://orcid.org/0009-0002-3759-9822

مُلخص:

لقد احتفظَت لنَا الذاكرةُ الجمعيةُ للعربِ الجاهليينَ، مُرورًا بِالأجيالِ المُتتابعةِ بعدَهم والأزمنةِ المُتلاحقةِ بِمَادةٍ تراثيةٍ كبيرةٍ، وثروةٍ لُغويةٍ عَظيمةٍ، مِن منظومِ الكلامِ ومنثورِه، وَقَد بَلغَت درجةُ اعتقادِ بعضِ العربِ، وغيرِ العربِ مِن البَاحثينَ فِي هذا الشّأنِ مَبلغًا خَرجَ عَن إطارِ المَنهجيةِ في القولِ بِأنّ أكثرَ مَا جَاءَنا مِن هذه الثّروةِ منحولًا أو غيرَ صحيحِ النّسبةِ لأصحابِه مِن الشّعراءِ والخُطباءِ، فَلزمَ مِن ذلكَ تدقيقُ النّظرِ في تلكَ القضيةِ، فِي محاولةٍ للكشفِ عَن ملابساتِها، عبر قراءةٍ متوازنةٍ واعيةٍ للذاكرةِ العربيةِ الجَمعيةِ التي تَمكَّنت عَبرَ الأجيالِ المتعاقبةِ والأزمنةِ المتلاحقةِ مِن حفظِ هذه النّصوصِ وتَقييما ، وذلك عَبرَ عَددٍ مِن ديناميكيات الحفظِ والتّقييم التي تؤكّدُ عَلَى صحّةِ نسبةِ هذا الموروثِ للعربِ القُدامَى زَمنَ الجَاهليةِ.

الكَلماتُ المفتاحيةُ: الذاكرةُ الجمعية، الشّعر العربي، آليات الحفظِ، التّقييم، النقد، العصر الجاهلي.

The Impact of Collective Memory on the Formation of Literary Criticism in the Pre-Islamic Era

(A Study of the Mechanisms of Preservation and Evaluation)

Maitham Raheem Shaghati

University of Maysan / College of Basic Education / Department of Arabic Language

Abstract

The collective memory of the pre-Islamic Arabs—transmitted through successive generations and across various eras—has preserved for us a vast heritage of oral and written traditions, along with a rich linguistic legacy. This body of work, both in verse and prose, has reached such a magnitude that some Arabs and non-Arab researchers have come to believe, albeit unmethodically, that much of this literary wealth is either fabricated or inaccurately attributed to its original authors among poets and orators. This belief necessitates a closer, more critical examination of the issue in an attempt to uncover its complexities. Through a balanced and conscious reading of the Arab collective memory—which managed across generations and ages to preserve and evaluate these texts—this study explores various dynamics of preservation and evaluation that affirm

the authenticity of attributing this literary heritage to the ancient Arabs of the pre-Islamic period.

Keywords: Collective memory, Arabic poetry, preservation mechanisms, evaluation, criticism, pre-Islamic era.

المُقدمــةُ

لـيس مـن المبالغـةِ فـي شـيءٍ اعتبـارُ الـذاكرة الجمعيّـة ركيـزةً أساسـيةً مـن ركـائزِ إعـادةِ تشـكيلِ البنيـةِ الأجناسـيةِ لـلأدبِ العربـيّ فـي مرحلـةٍ مبكـرةٍ مـن مراحـلِ تطـورِهِ وتناميـهِ، وأصـلٌ مـن أصـولِ توزيـعِ خارطـةِ الـذاكرةِ التـي أسـهمت فـي حفـظِ الأجنـاسِ الأدبيـةِ ذاتِ التـأثيرِ فـي صـياغةِ وجـدانِ المُبـدعِ، وصـناعةِ تـاريخِ الأدبِ العربـيّ، ومَـا كَـانَ للعقـلِ العربـيّ أن يَحـتفظَ بِـذلكَ الكـمِّ الهائـلِ مِـن الأبيـاتِ الشّـعريةِ، ويَنتقـلَ بهـا عبـرَ بوّابـاتِ الـزّمنِ؛ ليسـتقرّ بـهِ المقـامُ فـي عصـرِنا هـذا، لتكـونَ محـلَّ نقـاشٍ ودراسـةٍ مَـالمَ تَكـن هنـاكَ ذاكـرةٌ جمعيـةٌ تَبَنَّـت تخـزينَ هـذه الأبيـاتِ المنظومـةِ فـي أزمنـةٍ مُختلفـةٍ، والمنسوبةِ لشُعراءَ كثيرين.

وقـد تبنَّـىٰ علمـاءُ الاجتمـاعِ نظريـةَ الـذاكرة الجمعيّـة، وإفرادِهـا بالحـديثِ عـن أبـرزِ انعكاسـاتِها علـىٰ الفنـونِ والآدابِ المُعبّـرةِ عـن المُجتمـعِ، وأسـفرَت الدّراسـاتُ الأدبيـةُ ذاتُ الصّـلةِ الوثيقـةِ بعلـومِ الاجتمـاعِ عـن قـوةِ هـذه العلاقـةِ عبـرَ مـا أطلَقَـت عليـهِ مفهـومَ (سيسـيولوجيا الأدب)، فـأثرَت ميـدانَ الإبـداعِ بِمُنعكسـاتِ هـذا الارتبـاطِ، الـذي أخـذَ بِعَـينِ الاعتبـارِ أثـرِ الـذّاكرةِ الجَمعيـةِ فـي صِـياغةِ أسـاليبِ النّقـدِ الأدبـيّ وطَرائقِـه فـي عصـورِهِ الأولـىٰ الحاضـنةِ لـهِ، زمـنَ الجاهليـةِ، وذلـك عبـرَ القـراءةِ النّقديةِ الواعيةِ في دِيناميكيَّاتِ الحِفظِ، والتّقييمِ.

وسـتُقدِّم لنـا هـذه الدراسـةُ بيانًـا وافيًـا عـن كيفيـةِ احتفـاظِ الـذاكرةِ الجمعيـةِ بـالظواهرِ النقديـةِ الموروثـةِ، والأجنـاسِ الأدبيـةِ الأكثـرِ تمـثُّلًا وحضـورًا فـي لسـانِ العـربِ زمـنَ الجاهليـةِ، وتُفـرِزُ آثارَهـا فيمـا تَبلغُـه مـن نتـائجَ حـولَ مـا اتَّصـل بالـذاكرةِ الجمعيـةِ مـن أُسـسٍ رسَّـخَت لحفـظِ الظـواهرِ النقديـةِ والأدبيـةِ، عبـرَ دينماكيـاتِ الحفـظِ والتّقيـيم، علـىٰ أن تقـعَ الدراسـةُ فـي مبحثـين تخضـعُ داخليًـا لتقسـيماتٍ فرعيةٍ أُخرىٰ، علىٰ نحوِ ما يلي:

- المبحث الأول: مَراحلُ التّطوّرِ والتّنامي التي مرّت بها الذّاكرةُ الجَمعيةُ في الحِفظِ والتّقييمِ النّقديّ.
-المرحلةُ الكَشفيةُ للذّاكرةِ الجمعيّةِ.
-المرحلةُ الانتقاليةُ في الذّاكرةِ الجمعيةِ.
-مَرحلةُ النّضجِ واستقرارِ الفكرِ الجمعيّ.
- المبحث الثاني: آلِيّاتُ الحفظِ التي عوَّلتْ عليها الذّاكرةُ الجمعيةُ في النّقدِ والتّقييمِ:

-الإيقاعُ المُوسيقيّ

-الصُّورةُ الشّعريةُ

-القِيمُ الاجتماعيةُ

-الانتماءُ القَبليُّ

المبحثُ الأوّلُ

مَراحلُ التّطوّرِ والتّنامي التي مرّت بها الذّاكرةُ الجَمعيةُ في الحِفظِ والتّقييمِ النّقديّ.

يأخذُ الاحتفاظُ بالظواهرِ المرتبطةِ بالحضارةِ وتنامي العقلِ الإنسانيّ – عبرَ مراحلِه المختلفةِ – أشكالًا متباينةً يظهرُ فيها أثرُ الذاكرةِ الجماعيةِ في الإبقاءِ ليسَ على الأثرِ وحسبُ، بل على الظاهرةِ نفسِها التي خلَّفت وراءَها ذلك الأثرَ، وكونُ الأدبِ ونقدِه أحدَ أهمِّ الركائز والدعامات التي عوَّل عليه العربيُّ في إقامةِ حضارتِه وصناعةِ أبجدياتِها، كان من المناسبِ أن يكتنفَه العربُ بعنايةٍ خاصَّةٍ، ولك من حيثُ شكَّل الشعرُ نوعًا من الخواصِّ المعرفيةِ المشتركةِ بينَ العربِ وبعضِهم لا يُمكن الاستغناءُ عنها في محافلِهم وقوافلِهم، وقد جعلَ بعض الباحثين القدرةَ المعرافيةَ وملَكَة الاحتفاظِ بالمعارفِ المشتركةِ عاملًا مشتركًا بينَ شعوبِ الأرضِ قاطبةً، وأرجعَ ذلك إلى التطور البيولوجي الطارئ على العاداتِ والسلوكيات الإدراكية[i].

وقد مرَّت الذاكرةُ الجمعيةُ العربيةُ في الاحتفاظِ بالنصوصِ اللغويةِ ذات القيمة الوجدانيةِ بمراحلَ ثلاثةٍ، نتبيَّنُها في التالي:

-المرحلةُ الكَشفيةُ للذّاكرةِ الجمعيّةِ

لم يكن المكوّنُ الثقافيُّ العربيُّ لينحصرَ فيما وصلتْ إليهِ الذاكرةُ الجمعيةُ من مقدرةٍ على الانتقاءِ، وحفظِ ما انتقتْه، ما لم تَمرَّ بمرحلةِ الكشفِ والتثبّت، ليسَ لإرادةِ الحفظِ المُجرَّد؛ فالحفظُ لم يكُن غايةَ العربيَّ المُستنطقَة، بل للحفظِ المنفتحِ على آفاقِ التقييمِ، فالتقييمُ نوعٌ من الانتقائيةِ التي تُمكّنُ من معرفةِ ما يصلحُ وما لا يصلحُ، ويُعدُّ الشِّعرُ أحدُ تجليَّاتِ الذَّاكرةِ التي "تتجلَّى أحيانًا في الأوهامِ والأحلامِ، وفي القصص والملاحم البطولية والأشعار. وفوق ذلك، فهي منظومات من القيم والرموز، وأنماط التفكير والتعبير، ويمكن ملامسة الذاكرة في الأماكن والمآثر المادية، وفي التقاليد

الشفاهية، كطقوس الانتصار، أو الخوف والتحصين. وتستشف أيضا في مظاهر الانغلاق الثقافي أو الانفتاح"[ii]، وقد أرجعَ الدكتور عمر فروخ رسوخَ مادةِ الشعرِ وقوة حفظِ العربِ لها، إلى ما أطلقَ عليهِ مفهومَ الأدبِ الوجدانيّ؛ حيثُ أرجعَ أسبابَ احتفاظِ الذاكرةِ العربيةِ بِهذا الكمِّ الهَائلِ مِن الشّعرِ إلَى وجدانيتِه ذاتِ التّأثيرِ القويّ في العَمليةِ السّلوكيةِ الإدراكيةِ للعقلِ، وذلك في صددِ إخبارِهِ عن منهجِه في الجمعِ والتقييمِ، فيقولُ: "وما دامَ لا بُدَّ في التَّخيُّرِ من الاستغناءِ عن نفرٍ كثيرين في كلِّ عصرٍ، فلقد وجدتُ أن أستغنيَ عن كلِّ مالم يَعِشْ في الأدبِ الوجدانيّ"[iii]، وكانَ مِن البّديهيّ أن تَمرَّ ذاكرةُ الجماعةِ بِهذه المرحلةِ الأوَّليةِ، مِن الانتقاءِ والاختيارِ؛ لتصلَ في مرحلةٍ تاليةٍ إلَى إدراكِ القصُورِ في مَسألةِ التّقييمِ.

ومِن ثَمَّ تُحاولُ الانتقالَ إلَى مرحلةٍ جديدةٍ تُمكّنُ مِن اختيارِ الأفضلِ، عبر عَقدِ الموازناتِ والمقارنةِ بينَ مَا يجبُ أن تَحتفظَ بهِ ذاكرتُهم وَما يَنبغي أن تَنفيهِ؛ لعدمِ صلاحيةِ الانتفاعِ بِه، ويصطلحُ أُونج عَلى تلكَ المرحلةِ التي يَظهرُ أثرُ تطوّرِ الذّاكرةِ فيهَا سَاذجًا بِالمرحلةِ البَدائيةِ[iv]، وذلكَ بالنّظرِ إلَى ما يُمكنُ اعتمادُه مِن التّحديثاتِ الطارئةِ عَلَى الاحتفاظِ بالشّعرِ العربيّ فِي مراحلِه المُتقدمةِ، في ذاكرةِ المتخصّصينَ مِن العربِ، فالشعرُ العربيُّ لَم يَكن لِيحتفظَ بِه عامّةُ العربِ، أو يتناقلوه كلُّهم، بَل إنّه اتّسمَ في تلكَ المرحلةِ بِأنّ له خصوصيةً لَم يكنُ يُدرِك شأوَهَا إلّا مَن لهُ بِه شديدُ تَعلُّقٍ، وفي بعضِ نصوصِ ابنِ خلدونَ ما يُشعرُ بِأنّ أحدَ أبرزِ دوافعِ اجتماعِ العربِ عَلى حفظِ شِعرَهم وتقييمِهُ وترديدِه أنّه الأقدرُ عَلَى صَيانةِ اللغةِ الّتي عَدُوها المُكوّنَ الأساسيّ في حَضَارتِهم[v]، وقد كانَ للشعرِ عندَ الشَّاعرِ في تلك المرحلةِ اتّجاهٌ يُحاكي أوليةَ بروزِه وعنايةِ العربِ بهِ، ولا يُقاسُ على ذلك ما جاءَ في قولِ عليّ ابنِ الجهمِ[vi]:

وَمَا الشِّعرُ مِمَّا أستظلُّ بِظلِّهِ ولَا زَادَني قدرًا ولا حطَّ مِن قدري

إذ لو تكن للعربِ عنايةٌ به من أولِ الأمرِ ما كانَ ليعمَد شاعرٌ من الفحولِ كمهلهل بن أبي ربيعةَ، إليهِ محاولًا إصلاحَه وتزيينهُ، تلك الهلهلةُ التي تظهرُ في قولِه[vii]:

لَمَّا توَقَّلَ في الكُراعِ شَريدُهم هَلْهَلتُ أثْأرُ جابرًا أو صنبلَا

-المرحلةُ الانتقاليةُ في الذّاكرةِ الجمعيةِ

وفي الإشارةِ إلَى الانتقالِ الشّفاهيّ مِن مرحلةٍ لأُخرَى فِي تسجيلِ الذّواكرِ البَشريةِ للمعارفِ، يُشيرُ أُونج، في إطارِ حديثِه عَن الانتقالِ النَمطيّ الذي لَحِقَ شعرَ هوميروس مِن مَرحلةِ القولِ إلَى مرحلةِ الحفظِ والإشادةِ، ثُمّ إلَى مرحلةِ التمثّلِ بِه، مُؤكّدًا عَلى أنّ الانتقالَ بهذا الشّعرِ مِن طَورٍ إلَى طَورٍ، ليسَ ذا تأثيرٍ في نَمائِه وإضفاءِ صورةٍ جديدةٍ عَليهِ؛ انطلاقًا مِن مُجملِ التّقاليدِ الشّفاهيةِ الّتي اَعتادَتْهَا الذّاكرةُ الجَماعيةُ فِي شِعرِهِ فَحفظتْه بِها، حَتَى لُحوقِ بعضِ التّغيّراتِ التي جَعَلت منهُ نمطًا جديدًا متأثرًا بِالمرحلةِ، ثُمّ مِن خلالِ الموازنةِ والتّفرقةِ بينَ أساليبِ هوميرس في كلٍ من الإلياذةِ والأُوديسة، وأسلوبِنا نحنُ المعاصرِ في الاحتفاظِ بِنَوعٍ ما مِن الشّعرِ مُتأثّرينَ بِأسلوبِه ونزعتِه المُختلفةِ[viii].

إنَّ ما تحصَّل للعربيّ من ملَكَةِ القُدرةِ على الاحتفاظِ ببعضِ أجناسِ الأدبِ لأزمنةٍ بعيدةٍ، تُمكّنُ مِن الإبقاءِ عَليهِ في ذاكرةِ الزّمنِ المُسترفدةِ مِن ذاكرةِ الجماعةِ، منشؤهُ ذلكَ التّقليدُ الذي حَكمَ العربَ قديمًا، فَحمَلَهم عَلَى الاعتزازِ بِلُغتِهم وَالتّفريقِ بينَ مَا هو منظومٌ منها وَما هو مَنثورٌ، وعَلَى غرارِ ذلكَ فرَّقَ العُلماءُ بينَ ما يُمكنُ أن يتحصّل للحضريّ والبدويّ مِن ملكاتِ اللّسانِ الّتي تقودُه إلَى النّظمِ عَلى أعاريضِ العربِ القديمةِ، أو الاحتفاظِ بِالمنظومِ مِمّا جاءَ بِه سابقوه مِن الشّعراء، فيمتازُ بِذلك عَمّن سِوَاهُ مِمّن لا يَمتلك أدواتِ النّظمِ أو مَلكاتِ الحفظِ والتّقييمِ، وذلكَ مِن حَيثُ "كَانَ أهلُ الأمصارِ قَاصرون عَن تَحصيلِ هذه المَلَكَةِ اللسانيةِ الّتي تُستفادُ بِالتّعليمِ...، والسّبب في ذلك ما يسبق إلى المتعلّم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة بما سبق إليه من اللّسان الحضريّ الّذي أفادته العجمة حتّى نزل بها اللّسان عن ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضر لهذا العهد"[ix]، وذلكَ الذي صرَّحَ بِه ابنُ خلدونَ مِن انفرادِ أصحابِ الملكاتِ بالقُدرةِ التّي تُمكّنُ لهُم فِي الحفظِ والتّقييمِ عَبرَ ذواكرِ المُجتمعِ المُتعددةِ الأطيافِ، يُمكنُ الحُكمُ بِه عَلَى مراحلِ الاستنطاقِ العربيّ لِذاكرتِه الجمعيةِ بِالشّعرِ فِي كلّ زمنٍ.

وقد أخذ انتقاءُ الشعرِ وجمعِه أشكالًا ومرَّ عبرَ أزمنةٍ متتاليةٍ، وكانت تلك المرحلةُ بدأت زمنَ الجاهليةِ القريبة من الإسلامِ، واتخذت لها منحًى شفاهيًّا، ثمَّ بدت ذات تأثيرٍ في العصرِ الأمويّ لزيادةِ التكاليفِ المنوطِ بالشّعرِ النهوضُ بها، فقد عملَ على حفظِ الوقائعِ والعنايةِ بحفظِ الأنسابِ وذكرِها، ويُسجّل لنا امرؤ القيسِ بن حُجرٍ شكلًا من أشكالِ هذا الانتقالِ بوقوفِه على الأطلالِ واستيقافِه للركبِ، واستبكائِه للأصحابِ[x]، ومن ذلك قولُه[xi]:

قِفَا نَبكِ مِن ذِكرَى حَبيبٍ ومنزلِ بِسَقطِ اللَّوَى بينَ الدَّخُولِ فَحَوملِ

ولـم يكـن ثَـمَّ مـن فعـلَ فعلَـه قبلَـه، وكـانِ لفعلِـه بالشـعرِ أثـرًا بـالغَ الظهـورِ فـي العنايـةِ بـهِ، وحفظِـه وترديدِه؛ لملامستِه لوجدانِ العربِ في ذلك الوقتِ.

-مَرحلةُ النّضجِ واستقرارِ الفكرِ الجمعيّ

هنالـكَ عـددٌ مِـن العوامـلِ المُسـهِمَةِ فـي تَنـامِي آثـارِ الحفـظِ، وانعكاسِـها عَلَـى بقـاءِ مَـادةِ الشّـعرِ العربـيّ الجاهليّـةِ كمَـا هـيَ دونَ تغييـرٍ أو تَبـديلٍ فيَهـا مَـعَ أمـنِ النّاقـلِ عَليهَـا، ومِـن أبـرزِ هـذه العوامـلِ وَأدقّهـا مَـا حَفِظَـه لنَـا تـاريخُ العلـومِ الإنسـانيةِ مِـن أنّ للعـربِ أسـواقًا كَانـت تُضـربُ فيهَـا الأخبيـةُ وتُعقَـدُ فيهَـا الأمديـةُ؛ بِغـرضِ الاسـتماعِ للشـعرِ والحكومـةِ فيـه، وكَـان مرجـعُ الحُكـمِ فـي الفصـلِ بـينَ الشّـعراءِ وبعضِـهم كبـارُ شـعراءِ العـربِ، كَالنّابغـةِ الـذّبانيّ، وكانـت تُضـرَب لـهُ قُبـةٌ حمـراءُ مِـن أُدمٍ تَأتيـهِ الشّـعراءُ فَتعـرضُ عَليـهِ أشـعارَهَاوَكانَ مِمَـن تَحـاَكَم إلَيـهِ الأعشَـى، وَأبُـو بَصـير"[xii]، وذلـكَ فـي قُبّتِـه فـي سـوقِ عُكاظٍ يَحكمُ فيهَا بينَ شعراءِ القبائلِ.

ويبـدو أنّ لهـذه الأسـواقِ أثـرًا بـالغَ الأهميـةِ فـي التّأصـيلِ لشـيوعِ النّزعـةِ الشّـفويةِ عَلَـى حسـابِ النّزعـةِ الكتابيـةِ، لاسـيمّا أنّ العـربَ كَانـت أُمّـةً أُميـةً، لا يُجيـدُ أكثرُهـا القـراءةَ ولا الكتابـةِ، ومِـن امتيـازاتِهم العقليـةِ أنّ ذاكـرتَهم الجمعيـةَ كانـت تُسـعِفُهم بِمـا تُسـعِفُ بِـه الـذاكرةُ الكتابيـةُ أصـحابَها؛ لأنّهـم اعتمـدوا اعتمـادًا كبيـرًا علَـى نشـاطِهم الشّـفاهيّ وملكـاتِهم الإدراكيـةِ الحفظيـةِ، ويـربطُ العـربُ بـينَ السـحرِ والشِّـعرِ فـي عـدمِ قُـدرةِ الأكثـرِ مـنهم علـى إدراكِ شـأوِه، وذلـك أحـدُ أسـبابِ تطـورِ حركـةِ الشـعرِ وحفـظِ العربِ لهُ، فالنفسُ أشدُّ شغفًا بِما لا تنالُه، وفي ذلك يقولُ رؤبةُ ابنُ العجاج[xiii]:

لَقَد خشيتُ أن تَكونَ سَاحرَا رَاويةً مرًّا ومرًّا شَاعرَا

وفـي ردِّ مطـاعنِ الغُـلاةِ عَلـى ذاكـرةِ العـربِ الجَمعيـةِ يقـولُ الرّافعـيُّ: "ولقـد رأينـا كثيـرًا مـن أهـل عصـرنا يمضـغون علمـاء العـرب مضـغًا، ويلـوون ألسـنتهم بعبـارات مـن الإزراء علـى مـا وردت بـه الروايـة مـن أنبـاء حفظهـم، لا يَعْجَبُـون فـي أنفسـهم مـن أن يكـون ذلـك صـدقًا فحسـب، ولكـنهم يُعَجِّبونـك مـن كذبـه، وينبهونـك علـى سـخافة المغـالاة فيـه بـزعمهم؛ لمـا يشـق علـيهم مـن النـزوع إلـى مثلـه والأخـذ فـي ناحيتـه، ولقصـر نظـرهم عـن الطمـوح إلـى بعـض مراتبـه! فيأتونـك بـالكلام اعتسـافًا، ويتخرصـون

بالأحكام جزافًا، ويزعمون أن أكثر ما روي عن علمائنا في الحفظ فهو إما تنفيق لهم في سوق التاريخ، أو تلفيق عليهم في مساقه؛ ولو أنك اعترضت الحجةَ في مدارج أنفاسهم لرأيتها هواءً، أو كلامًا هُراءً :فهم يقيسون على ما فى طباعهم من الكلال، وما فى أنفسهم من الهُوَيْنَا والوكال؛ ثم هم قوم لا يكشفون عن أسباب الحوادث العربية، ولا ينفذون بين معاقد تلك الأمور ومصادرها؛ وقد جهلوا تاريخ الرواية، وجهلوا معه الأسباب التي بعثت من تلك الهمم سوابق غاياتها، وأظهرت لها معجزات الحفظ خوارق آياتها، ورفعت للأجيال على قمة التاريخ العقلي خوافق راياتها؛ فهؤلاء لا نزيد على أن نقول فيهم: هؤلاء"[xiv]، ويتّضحُ لَنا أثرُ اتّكالِ العربِ عَلى ذواكرِهم فِي حَفظِ وَتقييمِ مادةِ الأدبِ؛ للاعتباراتِ الّتي غصّت بِذكرِها كُتبُ الأدبِ القَديمةِ والحديثةِ، والّتي مَنها أنّ الحَفظَ آمَنُ عَلى الشّعرِ مِن الكتابةِ، وأنّ أُميّةَ العربِ مانعةٌ مِن التدوين.

ووفقَ مَا ظهرَ لَنَا مِن أنَّ محلَّ دورانِ عنايةِ العربِ بِتطويرِ طُرقِ حفظِها للشّعرِ، أنّه مادةُ اللغةِ وأصلُ الحضارةِ العربيةِ، وسجلُّ الأمجادِ، تبيّنَ أنّهم سَعَوا لاقتناصِ كلِّ بادرةٍ تُمكّنُهم مِن صيانةِ هذا الإرثِ، لاسيمّا في تلك المرحلةِ الأخيرةِ، الّتي هي مرحلةُ النّضجِ والكمالِ، حَيثُ لَم تَعُد طلّعاتِ العربِ مُنحصرةً في مَسألةِ حفظِ الشّعرِ؛ لِمَساسِه بالعاطفةِ، أو لسهولةِ حفظِه وتمثّلِه في بعضِ المحافلِ، بَل لإنّه استقلَّ بِحفظِ الموروثِ، وتَسجيلِ الأحداثِ، واسترجاعِ الوقائعِ، فكانَ لكلِّ تلك الأسبابِ أثرٌ في تقويةِ صيرورةِ العربيّ إلَى الحرصِ عَلى تسجيلِ الأفضلِ منه.

المبحثُ الثاني

آلِيّاتُ الحفظِ التي عوَّلتْ عليها الذّاكرةُ الجمعيةُ في النّقدِ والتّقييمِ

لَم تَخلُ حقبةٌ تاريخيةٌ في حَياةِ العربِ القَديمةِ مِن وفرةٍ في الأسبابِ التّي تُعالجُ قَضيةً مَا مِن القَضَايا الحضاريةِ ذاتِ الصّلةِ الوثيقةِ بِالتّاريخِ الذي تكوّن نتيجةً "لتصوراتٍ ثابتةٍ أقرتها كلّ مجموعةٍ مستقرةٍ بغرضِ مُقاومةِ التآكل المستمرِ الناجمِ عن ديمومةِ التحول"[xv]، والارتباطِ القويّ باللغةِ ومَا اتصلَ بِها مِن آدابٍ وقد أشار لُوبون إلى ارتباطِ نهضةِ العربِ القُدامَى وقيامِ حضارتِهم، وبلوغِهم غايةً لا يُدركونَ فيها بسببِ اللغةِ[xvi]، ولقِيامِ حَضارةِ العربِ عَلَى أساسٍ مَكِينٍ مِن اللغةِ الّتي كانُوا شديدي الاعتزازِ بِها والاحتفاءِ بِمَن يُعلِي شَأنَها، بدَت الأسبابُ والدّوافعُ التي تَعملُ عَلى الإبقاءِ عَليهَا أوفرَ، والعنايةَ بِها أوْلَى وأجدر، وكَان للراويةِ في ذلكَ الدّورُ الأعظم، إذ

إنَّ الـدّينامكيّاتِ التـي أسـهمَت فِـي حَفـظِ الخطـابِ النّقـديّ والأدبـيّ العربـيّ القَـديمِ زمـنَ الجَاهليـةِ وتقييمِه، ارتكزَ بالأساسِ عَلَى الرّواةِ والنّقَلَة.

وَقَـد وَضَـعَ عُلمـاءُ العربيـةِ لقبـولِ رَوايـةِ الشّـعرِ؛ بوصـفهِ مصـدرَ اللغـةِ ومرجـعَ اللغـويينَ فـي الحُكـمِ بِصـحّةِ مـادّةِ أو خَطئِهـا، ضـوابطَ حاكمـةً، وشـروطًا صـارمةً لقبـولِ روايـةِ بيـتٍ مـن الشّـعرِ، واسـتقبالِه بحفـاوةٍ وترحيـبٍ دونَ طَعـنٍ عَليـهِ، ومِـن تلـكَ الضّـوابطِ: أن يَـأتِي الشّـاهدُ مِـن غيـرِ وجـهٍ، أي: أن تتعـدّد رواياتُـه، وذلـكَ هـو الأصـلُ الـذي تَنطلـقُ منـهُ الـذّاكرةُ الجَمعيـةُ فـي تحقيـقِ أهـدافِها، مِـن حيـثُ كانـت ذاكـرةُ الجماعـةِ أقـربَ إلَـى الموثوقيـةِ مِـن الـذاكرةِ الفرديـةِ؛ لعـدمِ احتمـالِ تسـرُّبِ الخَلـلِ أو النّسـيانِ أو التّـدليسِ إليهَـا، مـع ضـرورة الاتفـاقِ علـى عدالـةِ الـراوي، وسـماعِه مـن غيـرِه مباشـرةً دون وسـيطٍ[xvii]، ويقودُنـا هـذا إلَـى قضـيةِ النّحـلِ، فهـي مِـن المسـائلِ شـديدةِ الاتصـالِ بموضـوعِ الدّراسـةِ، وقَـد أثـارت شَـكوكًا واسـعةً فـي الأوسـاطِ اللغويـةِ الاستشـراقيةِ حـولَ الشّـعرِ العربـيّ الجـاهليّ[xviii]، غيـرَ أنّ ردودَ علمـاءِ العـربِ عَليهَـا جـاءت مُفحمـةً، لاسـيمّا أنّهـا كانـتَ مصـحوبةً بالـدّليلِ، الـذي اتّخـذ مِـن رُوايـةِ الـرّواةِ سَـندًا فـي التثبّـتِ مِـن سـلامةِ نسـبةِ الشّـعرِ الجـاهليّ إلَـى قَائليـهِ، وبِمقارنـةِ المسـألةِ بِمَـا تُحيـلُ عَليـهِ الـذاكرةُ الجمعيـةُ فـي الدّراسـاتِ الاجتماعيـةِ والفلسـفيةِ نَقِـفُ عَلـى عُمـقِ الفكـرِ العربـيّ فِـي محـاولاتِ الإبقـاءِ عَلـى الخطـابِ النقـديّ وبعـضِ أجنـاسِ الأدبِ خصوصًـا الشّـعر مُحفوظًـا دونَ أن تَمسّـهُ عاديـةُ الزّمنِ.

وهُنـاكَ بِجانـبِ التّعويـلِ عَلَـى تلـكَ الضّـوابطِ فِـي الحُكـمِ بِسـلامةِ مَـا جاءَنـا مِـن شِـعرِ شـعراءِ العربيـةِ الجّـاهليينَ، مَـا يُمكـن الانطـلاقُ منـهُ مِـن المّحـاورِ التـي تُشـيرُ كـذلكَ إلَـى وفـرةِ الـدّوافعِ لَـدَى العربِ القُدامَى في حفظِ أدبِهم وتقييمِه، والّتي مَنها:

-الإيقاعُ المُوسيقيّ

ترصـدُ لنـا الدراسـاتُ التـي ركّـزت عنايتَهـا علـى البحـثِ فـي مسـألةِ أوَّليّـةِ الشـعرِ العربـيّ ظـاهرةً أساسـيةً شـكَّلت فارقًـا ملحوظًـا فـي انتقـالِ المبـدعِ العربـيّ مـن طـورِ المشـافهةِ بالخطـابِ المنثـورِ، إلـى الخطـابِ المنظـومِ، وهـي ظـاهرةُ الإيقـاعِ الشـعريُّ؛ لِشـدةِ أخـذِها بعقلِـه وتأثيرِهـا فـي نفسِـه، وقـد بـدأت تلـك الظـاهرةُ علـى شـاكلةِ غيرِهـا مـن الظـواهرِ الإبداعيـةِ التـي تبـدأ طريقَهـا فـي الظهـورِ بسـيطةً لا

تعتورُها أيُّ تعقيداتٍ، ثمَّ أخذت تتقلَّب في أطوارِ النماءِ حتى وصلَت إلى ما وصَلت إليهِ من قوةِ التأثيرِ في الوجدانِ العربيّ.

وقد كانَ الإيقاعُ الموسيقيُّ أحدَ أشكالِ التطورِ الذي لحقَ بالخطابِ العربيّ في فترةٍ مبكرةٍ من الزمنِ، وكانَ الهدفُ منهُ تيسيرَ حفظِ هذا الخطابِ؛ لأنَّ ما كانَ موزونًا من الكلامِ كانَ أقربَ إلى الحفظِ من التفلُّتِ والنسيانِ[xix]، ويُرجعُ بعضُ الباحثين الابتكارَ في الإيقاعِ الشعريّ إلى اعتيادِ العربِ إنشادَ الأغاني عند نزولِهم بوادٍ من الأوديةِ في سفرٍ لهم؛ للتسليةِ، على أنَّ ما كانَ منهم في هذا الصددِ كان بداياتٍ لهذا الابتكارِ الجديدِ الذي طبعَ الخطابَ الإبداعيَّ العربيَّ بطابعٍ جديدٍ، غيرَ أنَّ الشعرَ كانَ أكثرَ تطورًا وثباتًا من تلك الأغاني وهذه الأناشيد التي لم تكن يحكمُها تقليدٌ[xx].

وفي نسبةِ ترقيقِ الشعرِ إلى مهلهلِ ابنِ أبي ربيعةَ خال امرئِ القيسِ بنِ حُجر الكنديّ، إشارةٌ إلى أنَّ الشعرَ لم يكن مضبوطًا بضابطٍ، ولا موزونًا بإيقاعٍ ينتظمُه، حتى كانَ صنيعُ مهلهلٍ به، فرقَّق حواشيَه[xxi]، وقد احتفظت ذاكرةُ الجماعةِ بهذا الحدثِ على مرِّ العصورِ؛ لترصدَ لنا حقيقةَ إسهامِ الأوزانِ والإيقاعِ في حفظِ الذاكرةِ العربيةِ للمبادئ الأُولى لهذا الفنّ.

وبدأ ارتباطُ الشعرِ في الذاكرةِ العربيةِ بالمفاخرةِ والمناحرةِ، مضافًا إليهِ ما فيه من نغمٍ موسيقيٍّ يُمكِّن من حفظِه وتلقّيه وتقييمِه، تلك البدايةَ التي يُقرّبها للعقل والمنطقِ قولُ أبي عبيدةَ: "إنَّما كانَ الرجلُ يقولُ من الرجزِ البيتين والثلاثةِ ونحو ذلك، إذا حاربَ أو شاتَم أو فاخرَ"[xxii]، وأيًّا ما كانَ عددُ الأبياتِ التي بدأ عليها الشعرُ حياتَه، يظلُّ ارتباطُه بالذاكرةِ الحفظيةِ لدَى العربِ ناشئًا من قلةِ عددِ هذه الأبياتِ، ويؤيدُ ذلك أنَّ أقدمَ ما احتفظت لنا به كتبُ اللغةِ والأدبِ لكبارِ شعراءِ الجاهليةِ لا يخرجُ عن البيتين والثلاثةِ، فلم "تكن العربُ في الجاهليةِ تُطيلُ الأراجيزَ، وإنما أطالها المخضرمونَ والإسلاميون"[xxiii]، وقد "زعم الرواةُ أنَّ الشعرَ كلَّه كانَ رجزًا وقطعًا، وهو إنما قُصِّدَ على عهدِ هاشمِ بن عبدِ منافٍ..."[xxiv]، ولا يخفَى ارتباطُ أوليةُ الشعرِ بالأوزانِ والإيقاعاتِ التي نشأَ عليها، وعدمِ تخطّي العربيّ للرجزِ منه، وفي التنفيرِ والفخرِ بالشعرِ ما جاءَ في قولِ أوس بن حُجرٍ[xxv]:

بَنِيَّ ومَالي دُونَ عِرضِي وِقايةٌ وقولٌ كَوقعِ المشرفيّ المُصَمَّمِ

حيثُ يجعلُ وقعَ الشِّعرِ على الأعداءِ كوقعِ السيفِ الصمصامِ المُعمَلِ في الرقابِ[xxvi]، وكونُ الشعرِ سببًا من أسبابِ حفظِ العرضِ أدعَى لتلقّيه وحفظِه، وترديدِ العربِ لهُ في مآنسِها ومجالسِها.

ذلك أنَّ همَّهم الأوَّل كانَ التحولَ من المنثورِ الذي لا يُحفَظُ ولا يسهلُ تقييمُه، إلى المنظومِ الذي يستقرُ بِالعقلِ ويثبتُ في الذّهنِ، وكانَ الرّجزُ أنسبَ الأوزانِ وأقربَ الإيقاعاتِ إلَى الابتداءِ بِه، ذلكَ لِأنّ البداياتِ دائمًا ما تكونُ عَلى صفةٍ من الوهَنِ تجعلُ منهَا محلًّا لإعادةِ النّظرِ فيها؛ لإحداثِ التّغييرِ المُستمرّ، ومناسبةُ الرّجزِ لهذه المرحلةِ مِن ناحيةِ أنّه أكثرُ البحورِ اضطرابًا، فقد احتملَ هذا البحرُ من الاضطرابِ ما يجعلُ منهُ بدايةً صالحةً للنشاطِ الموسيقيّ الذي يُمهّد لحفظِ الشعرِ وتلقّيه فيما بعد، حيثُ لم يكن "ينظمه القدماءُ في تلك اللغةِ النموذجية الأدبيةِ التي نزل بها القرآن، والتي عُني بها الخاصة من العرب"[xxvii]، فبجانبِ ذلك الاضطرابِ الإيقاعيّ كانت كذلك مجمعَ التقاءِ لهجات العربِ ولغاتِهم، ولهذا أثرُه في عدمِ انتظامِ إيقاعِ الرجزِ، وسرعةِ حضورِ وزنِه في الذهنِ، وسرعةِ حفظِ الذَّاكرةِ العربيةِ لهُ،

وفيما يعملُ النقادُ على دراسةِ الوعي الجمعيّ بضرورةِ حفظِ الموادِّ التراثيةِ، خصوصًا تلك التي تنهضُ عليها الحضارةُ، كما هو الحالُ مع الشعرِ العربيّ، يذكرُ موريس هالبفاكس أنَّ الذاكرةَ الموسيقيةَ تُشكِّل مثالًا ملموسًا لتوضيحِ تصورِه للذاكرةِ الجمعيةِ، فباعتبارِها نمطًا مخصوصًا من أنماطِ الذاكرةِ التي يحتفظُ بها جماعةٌ بعينِهم، يُمكن الرجوعُ إليها في معرفةِ المخزونِ المرتبطِ به[xxviii]، وكونُ الشعرِ واحدًا من الأنماطِ الموسيقيةِ ذات الإيقاعِ الذي يحتفظُ لنفسِه بالقدرةِ على البقاءِ والتمدُّدِ عبرَ الأزمنةِ.

- الصُّورةُ الشّعريةُ

من أبرزِ وجوهِ التّمايزِ بينَ الشّعرِ والنّثرِ، بينَ منظومِ الكلامِ ومنثورِه، المخيالُ الشعري، وهو الذي عَبَّر عنه بعضُ نقّادِ العربِ القُدامَى كالجاحظِ بِالصّورةِ، وحازم القرطاجنّي بالمُحاكاةِ، فبعيدًا عن ماديةِ الصورةِ وتغليفِها للمعاني بالأشكالِ التي تُبرزُها للنورِ في هيئاتٍ محسوسةٍ نرَى قوةً تعبيريةً بينَها وبينَ الخيالِ الذي يتحوَّلُ من مجردِ معنًى ماثلٍ في الذهنِ، إلى شكلٍ له طابعٌ مخصوصٌ يُجسّد الواقعَ ويجعلُه أقربَ إلى الإدراكِ، وفي قولِ الجاحظِ: "إنَّما الشعرُ صناعةٌ

وضربٌ من النسجِ وجنسٌ من التصويرِ"[xxix]، استجلاءٌ لحقيقةِ الأثرِ الذي تُسجّله الصورةُ في ذهن المتلقّي، مما يجعلُ النصَّ أشدَّ تمكُّنًا في ذهنِه، وأقربَ إلى الاستحضارِ من الذاكرةِ في مناسباتِه المختلفةِ.

ومن براعةِ التصويرِ الذي يُعزّز من حفظِ الذاكرةِ الجمعيةِ للشّعرِ ما جاءَ في مقابلةِ جريرِ بن عطيةَ بينَ القافيةِ في الأثرِ والسيفِ[xxx]:

وعَاوٍ عَوَى من غيرِ شيءٍ رَميتُه بِقافيةٍ أنفاذُها تَقطرُ الدَّما

وَلِإنّي لَقَوَّالٌ لكلِّ غريبةٍ ورَودٍ إذَا السَّاري بليلٍ تَرَنَّما

خَروجٌ بِأفواهِ الرّجالِ كأنَّها قَرَى هِندوانيٍّ إذَا هزَّ صَمَّمَا

ويعني بِخروجٍ بأفواهِ الرجالِ، أنَّها تُحفَظُ، فتتناقلُها الناسُ، فتصلُ إلى الأعداءِ، فيكونُ لها وقعٌ كوقعِ السيفِ، كما أنَّها لموقعِها من النفسِ، وتأثيرِها في القلوبِ بموسيقاها، يتخذ منها الساري بالليلِ مُتَرَنَّما يُؤنسُ به وحشةَ ليلِه[xxxi]، ولولا أنَّها أشبهت السيفَ ما كانت لتحفَظَها الذاكرةُ وتتناقلُها الرجالُ.

ولا شكَّ أنَّ للصورةِ في الإبداعِ الشعريّ دوراً بارزاً في تقييم الخطابِ والفصلِ في جدارتِه بالحفظِ من عدمِها، فقد لا يحملُ الخطابُ موضوعًا على قدرٍ من الأهميةِ كبيرٍ، غيرَ أنَّ خلوَّه من مُعزّزاتِ حفظِ الذاكرةِ الجمعيةِ له، تحولُ دونَ بقائِه، وذلك لشدةِ "ارتباطِ الصورةِ بالإبداعِ الشعريّ الذي يَنتمي إلى الفرديةِ والذاتيةِ وحدودِ الطاقةِ الإبداعيةِ المعبَّرِ بها عنها بالموهبةِ"[xxxii]، بِما يَعني أنَّ الطاقةَ المتفجرةَ من الخطابِ الشعريّ لا تخضعُ في قياسِ قوتِها لمعاملِ الإيقاعِ وحدَه، بل كذلك تخضعُ في تقييمِها لتلك الديناميكيةِ الخياليةِ التي تُشكّلها الصورةُ والمخيالُ الشعريُّ؛ لأنَّها ركيزةٌ من الركائزِ التي تُمكّن من حفظِ الذاكرةِ الجمعيةِ للخطابِ الشعريّ، واستردادِه في أوقاتٍ متباينةٍ متى ألَحَّت الحاجةُ إلى ذلك.

ومن حيثُ كانَ ارتباطُ الشعرِ بالذاكرةِ الجمعيةِ مؤسَّسًا على قوةِ حفظِ الذاكرةِ لهُ، لم يكن ليُغفِلَ رجلٌ متبحِّرٌ في صناعةِ الشعرِ كحازم القرطاجني دَورَ التأثيرِ الذي يُمثِّلُ انعكاسًا أو وجهًا آخرَ لحفظِ الذاكرةِ الجمعيةِ للشّعرِ،على الاعتبارِ الذي صاغَه (هالبافاكس) في الحكمِ على مدعاةِ احتفاظِ الذاكرة بجانبٍ من المعارف والانتقالِ بها من طورٍ زمنيٍّ إلى طورٍ آخرَ؛ فيربطُ بينَ التأثيرِ

والتصويرِ، وبينَ حبِّ النفسِ والتماسِ القربِ من هذا النمطِ من الكلامِ، وقوةِ استشعارِ ضرورةِ تلقّي الشعرِ وحفظِه وتقييمه عبر تلك الديناميكياتِ التي تتشاركُ الوعي بضرورةِ حفظِ الشعرِ.

وتعريفِ القرطاجني للشعرِ يُحيلُ على كلِّ تلك الجوانبِ بقولِه: "الشعرُ كلامٌ موزونٌ مقفًى من شأنِه أن يُحبّب إلى النفسِ ما قُصد تحبيبُه إليها، ويُكرّه ما قُصدَ تكريهُه؛ لتحملَ بذلك على طلبِه أو الهربِ منه، بِما يتضمَّن من حسنِ تخييلٍ له"[xxxiii]، ولَيسَ يَخفَى مَا في كلامِ القَرطاجنّي مِن رَبطٍ بينَ الشّعرِ والحضورِ الذّواكريّ لهُ فِي مناسباتهِ الّتي تُملِي عَلَى المُتمثّلِ بِه استحضارُه فِيهَا، فَقولُه: "لتحملَ بذلك على طلبِه أو الهربِ منه، بِما يتضمَّن من حسنِ تخييلٍ له"، فَحملُ النّفسِ عَلَى طَلَبِ الشّعرِ لِا يَقعُ مَا لَم تكنُ الذّاكرةُ الجمعيةُ عَلَى اتّفاقٍ بِضرورةِ حفظِه وطلبهِ، كَمَا لَا يغيبُ على ذي نَظرٍ ما في عَبارتِه الآنفةِ مِن تَحقيقٍ لَفوائدِ الصّورةِ في حَفظِ النّصّ واستدعائِه في مناسباتِه، وإرادةِ تَقييمِه، والإبقاءِ عَليهِ عبرَ العصورِ.

-القِيمُ الاجتماعيةُ

في المُجتمعِ العربيّ مَا يُملِي عَلَى مُبدعيهِ الانتقالَ بينَ أطوارِ التّغييرِ ومحاولاتِ إثباتِ الذاتِ، مُتخطّين في ذلكَ كلَّ العوائقِ، مُتجاوزين كلّ الحواجزِ؛ لأنّ ذلكَ أحفظُ لسيرتِهم وأبقَى لذكرِهم بينَ النّاسِ، وقَد لاحظَ النّقادُ العربُ القدامَى ذلكَ من زمنٍ بعيدٍ، فَفي مراجعةِ ابن رشيقٍ لأسبابِ نَظمِ العربِ للشّعرِ يقولُ: "كانَ الكلامُ كلُّه منثوراً، فاحتاجت العربُ إلى الغناءِ بمكارمِ أخلاقِها وطيبِ أعراقِها، وذكرِ أيَّامِها الصالحةِ، وأوطانِها النازحةِ، وفرسانِها الأمجادِ، وسُمحائِها الأجوادِ"[xxxiv]، وهي عَينُها الدّوافعُ التي حَمَلَت العربِ عَلَى الالتفافِ حولَ الشّعرِ ونَقدِه، وَتقديمِه للمجتمعِ عَلَى أنّه الوسيلةُ الوحيدةُ التي رصدُ أحوالَهم، وتُحتفظُ بِأمجادِهم، وتلكَ غايةٌ اجتماعيةٌ كانَ العربيُّ منذ القدمِ حريصًا عَلى تمثُّلِها، فَلم يَجِد خيراً من الشّعرِ ليحفظَه لهُ هذه المكانةَ.

وقد لاحظَ موريس هالبفاكس العلاقةَ المكانيةَ التي تربطُ بين احتفاظِ جماعةٍ ما من الجماعاتِ بما يُمثّلُهم من المعارفِ والفنون، والمكانِ الذي يضمُّهم، فربطَ بينَ انغلاقِ الجماعةِ في إطارِها المكانيّ الذي اتخذتْه لنفسِها وتلك الصورة التي تسعَى لنقلِها إلى الجماعاتِ الأخرَى في أماكن أخرَى عنها، عبرَ ما احتفظت بها ذاكرةُ هذه الجماعةِ من وسائل تعبيريةٍ مختلفةٍ عن حصادِ حياتِها ومكانِها الذي تنفعلُ به وينفعلُ بها[xxxv]، وهنالك ملابسةٌ قويةٌ بين ما صرَّح به هالبفاكس

وما ذكرَه ابنُ رشيقٍ مِن أنّ للمكانِ أثرًا كبيرًا في احتفاءِ العربِ بِالشعرِ، لأنّه أساسٌ من الأُسسِ التي تُعيدُ الإنسانَ إلى أوطانِه النّازحة وتربطُه بهَا.

ولِما يعملُ عليه الشعرُ من تخليدِ عاداتِ العربِ الاجتماعيةِ، رسخَ في النفوسِ؛ لأنَّه صارَ تمثيلًا لتلك العاداتِ، ومن ذلك قولُ عنترةَ في طربِه بالخمرِ بعد تأثيرِها في عقلِه[xxxvi]:

طَرِبتُ وهَاجَني البَرقُ اليَماني وذَكَّرني المَنازلَ والمغاني

وأضرَمَ في صَميمِ القلبِ نارًا كضربي بالحُسامِ الهندواني

فهو يقرنُ بينَ أثرِ طربِه من الخمرِ، وما عكسَه عليه ذلك الطربُ بها من الشعورِ بالجسارةِ في الطعنِ بالسيفِ الهنداوني، وكانَت معاقرةُ الخمر زمنَ الجاهليةِ عادةً اجتماعيةً لم يَخلُ منها شعرُ شاعرٍ إلَّا قليلاً.

ونظيرُ ما جاءَ من احتفاءِ عنترةَ بالخمرِ في شعرِه، ما ساقَه لنا طرفَةُ بنُ العبدِ في قولِه[xxxvii]:

ومَا زالَ تَشرابي الخُمورِ ولَذّتي وبيعي وإنفَاقي طَريفي ومُتلدي

إلى أن تَحَامتْني العشيرةُ كُلُّها وأفردت أفرادَ البَعِيرِ المُعبَّدِ

ولم يكن ليُخلي شعرَه الذي يُفاخرُ فيه بنفسِه من إيرادِ تلك العادةِ الاجتماعيةِ التي هي محلُّ فخرٍ عندَ العربِ في الجاهليةِ؛ لِما يعلمُه من أنَّ ذكرَ الخمرِ في الشعرِ مما يجعلُ له انتشارًا في العربِ.

-الانتماءُ القَبليُّ

وقَد كانت العربُ أُمّةً قبليةً تحكمُها العصبياتُ الجاهليةُ، وكَان دفاعُهم عَن تلكَ العصبياتِ بِكلِّ مَا أُتيحَ لهم من وسائلِ الدّفاعِ، ومِن أهمِّ تلكَ الوسائلِ الذاكرة التي كانوا يُعوّلُون عليهَا كثيرًا في مُفاخرةِ بعضِهم عَلى بعضٍ بذكرِ الأحسابِ والأنسابِ، والمباهاةِ بعددِ الحروبِ التي نَشبَت بينَ بعضِهم وبعضٍ، فَكانَ الانتصارُ فيهَا لهؤلاءِ عَلَى هؤلاءِ، وقَد لعِبَ الشّعرُ فِي ذلك الدّورَ الأبرزَ، فَقد حظِيَ بعنايةٍ كبيرةٍ من العربِ قَاطبةً لِهذا السّببِ؛ لأجلِ أنّه احتفظَ بجُلِّ المعاركِ والوقعَاتِ الّتي دَارَت رَحاهَا بينَ بعضِ العربِ وبعضٍ فِي مراحلَ مختلفةٍ من الجَاهليةِ، ولذلكَ مَا كَانَ العربيُّ يسعدُ بشيءٍ قدرَ ما كانَ يسعدُ ويهنأ "بغلامٍ يُولدُ، أو شاعرٍ ينبغُ فيهم، أو فرسٍ تُنتِج"[xxxviii]، فمن

شدَّة احتفاءِ العربِ بنبوغِ شاعرٍ فيهم نسبوه إليهم نسبةَ الولدِ للوالدِ، وجعلوا الشاعرَ فيهم بمنزلةِ الولدِ الذي يدَّعيه كلٌّ لنفسِه.

وقد سجَّل الشعرُ العربيُّ الكثيرَ من المآثرِ والانتصاراتِ والانكساراتِ التي مرَّت بها القبائلُ في جاهليةِ العربِ، وكانَ تسجيلُه لهذه المآثرِ أدعَى إلَى حفظِه وَتلقّيهِ وتقييمِه، وَإعطائِه مِن الوقتِ والجُهدِ مَا يستحقُّه؛ لأنّه حَمَلَ طابعَ السّجلِّ التّاريخيِّ الذي رَصَدَ حركَةَ الحياةِ العربيةِ في شكلِها العَنيفِ، وطَابعِها المخيفِ، فالعربيُّ قديمًا لَم يكن يُفاخرُ بشيءٍ قدرَ مفاخرتِه بالحربِ، فَانعكسَ ذلكَ عَلَى رَغبتِه في حفظِ مآثرِه وبلائِه فيهَا، فاعتدَّ بالوسيلةِ الإعلاميةِ الوحيدةِ المُتاحةِ عندَه في ذلكَ الوقتِ، وهي الشّعرُ، فَنتَجَ عن ذلكَ احتفاؤه بالشّاعرِ وبشعرِه؛ لأنَّ العربَ لم تكن تعرفُ "أنسابَها وتواريخَها، وأيَّامها ووقائعَها إلَّا من جملةِ أشعارها، فالشعرُ ديوان العرب"[xxxix]، ومِن ثَمّ فإنّ الشّعرَ ارتبطَ ارتباطًا مَباشرًا بِذلكَ الحضورِ الذواكريّ الكبيرِ الذي يَحفظُ للعربِ أمجادَهم وَذكرَى مآثرِهم.

ومن مظاهرِ الانتماءِ القبليّ التي استقلَّ الشعرُ بذكرِها، فأسست لبقائِه وحفظِ ذاكرةِ الجماعةِ له، ما ذكرَه عنترة ابن شدادٍ في قولِه[xl]:

وَأحمِي حِمَى قَومي عَلى طولِ مُدَّتي إلَى أن يَرَوني في اللَّفَائفِ أُدجرَجُ

فَدُونَكم يَا آلَ عَبسٍ قَصيدةً يَلوحُ لها ضَوءٌ منَ الصُّبحِ أبلجُ

ألَا إنَّها خيرُ القَصائدِ كُلِّها يُفصَّلُ مِنهَا كلُّ ثَوبٍ ويُنسَجُ

واحتفاءُ فكرِ الجماعةِ، وحفظُ الذاكرةِ الجمعيةِ بما يُقدمُه الشعراءُ الفرسانُ للقبيلةِ من رعايةٍ للحقوقِ وصيانةٍ للحمَى، مرهونٌ بفكرةِ حمَى الأعراضِ والدفاعِ عن الأنسابِ وتخليدِ المآثرِ[xli].

الخاتمة:

وبعَد الفراغِ مِن المهمّاتِ المنوط بِتلكَ الدراسةِ بيانُها، نقفُ عَلَى أبرزِ النّتائجِ التي توصّل إَليهَا الباحثُ فِي هذا الصّددِ، وَهي عَلَى نحوِ مَا يلِي:

- اَحتفظَت الذاكرةُ الجَمعيةُ بِمَا يُصحّح مسارَ الحكمِ عَلَى الأدبِ والنّقدِ العربيّ بِأنّه معزوٌّ لأصحابِه زَمنَ الجَاهليةِ بِلا مُنازعٍ.
- اعتمادُ الذاكرةِ الجمعيةِ العربيةِ زمنَ الجاهليةِ عَلَى عددٍ من عَناصرِ التّقييمِ المؤكّدةِ عَلَى سلامةِ نَسبةِ هذا الإنتاجِ للشّعراءِ الجَاهليين.
- إسهامُ الذاكرةِ الجَمعيةِ في الحُكمِ عَلَى مَا فشَلَت فيهِ النّظرياتُ والمناهجُ النّقديةِ في إثباتِ صحّتِه؛ لِمَا تتّسمُ بِه مِن قوةٍ في التّحقيقِ.
- ارتباطُ الذاكرةِ الجمعيةِ الّتي حَفَظَت لَنا هذه الثروةَ بالعادَاتِ الاجتماعيةِ، والسّلوكياتِ القَبليةِ، بوصفها ركيزةً أساسيةً في الحُكمِ عَلى مَا وصلَنا مِن تراثِ العربِ الشّعريّ بِالصّحةِ؛ لتعبيرِه عَن تلكَ الحياةِ تعبيراً صادقًا

الهوامش

[i] ينظر: تيرنيس دبليون. ديكون، الإنسان – اللغة – الرمز (التطور المشترك للغة والمخ): 25

[ii] باسو أوجبور، إمل شيل، الذاكرة الجماعية: 6

[iii] عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي): 18

[iv] ينظر: والترج. أونج، الشفاهية والكتابية: 56 – 57

[v] ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، 1تاريخ ابن خلدون المسمَّى بـ(العبر وديوان المبتدأ والخبر): 805/1

[vi] ديوان علي بن الجهم: 213

[vii] ينظر: العمدة في نقد الشعر، ابن رشيق القيروان: 86/1

[viii] ينظر: والترج. أونج، الشفاهية والكتابية: 23

[ix] عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون: 778/1

[x] ينظر: أشعار الشعراء الستة، الأعلم الشنتمرى: 69/1

[xi] ينظر: ديوان امرئ القيس بن حجر الكندي: 8

[xii] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 88/17

[xiii] البيت من بحرِ الرجز وهو عند ابن رشيق في العمدة، 27/1، وليس له وجود في ديوان رؤبة بن العجاج.

[xiv] مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب: 271

[xv] موريس هالبفاكس، الذاكرة الجمعية: 23

[xvi] ينظر: جوستاف لوبون، حضارة العرب: 454

[xvii] ينظر: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعِها: 113/1- 114

[xviii] ينظر: مقالات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، تح: د. عبد الرحمن بدوي

[xix] ينظر: أبو عثمان بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين: 71/1

[xx] ينظر: أحمد حسنين، حول روافد النقد الأدبي عند العرب، مجلة فصول: 13

[xxi] ينظر: ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء: 297/1

[xxii] السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها: 484/2

[xxiii] إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر: 126

[xxiv] ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه، 219/1

[xxv] البيت لأوس بن حجر في ديوانه، ص124

[xxvi] ينظر: عبد الكريم النهشلي القيرواني، الممتع في صنعةِ الشعرِ: 265

[xxvii] إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر: 128

[xxviii] ينظر: موريس هالبفاكس، الذاكرة الجمعية: 66-67

[xxix] أبو عثمان بن بحر الجاحظ، الحيوان: 132/3

[xxx] ديوان جرير بن عطية بشرح محمد بن حبيب: 980/2

[xxxi] ينظر: المصدر نفسه: 980/2

[xxxii] صالح بشري موسى، الصورة الشعرية في النقد العربيّ الحديث: 19

[xxxiii] أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء: 71

[xxxiv] ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقدِه وآدابِه: 27/1

[xxxv] ينظر: موريس هالبفاكس، الذاكرة الجمعية: 285-286

[xxxvi] أشعار عنترة العبسي: 134

[xxxvii] ديوان طرفة بن العبد: 213

[xxxviii] ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده: 27/1

[xxxix] الحسن بن سهل أبو هلال العسكري، الصناعتانِ (الشعر والنثر): 138

[xl] أشعار عنترة بن شداد، محمد عبد المنعم خفاجي:234

[xli] ينظر: المزهر في علوم اللغة، السيوطي: 473/2

المصادر والمراجع:

-إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1952

-ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه، تح: السيد أحمد الجيلاني، دار المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ط1، 2004

-ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تح: د. أحمد محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2007

-أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1981

-أبو عثمان بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الغد العربي، القاهرة، مصر، ط1، 2017

-أبو عثمان بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط2، 1965

-أحمد حسنين، حول روافد النقد الأدبي عند العرب، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، مج 6، عد: 1، 1985

-الأعلم الشنتمرى، أشعار الشعراء الستة، الأعلم الشنتمرى، تح: إبراهيم سمش الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2019

-امرؤ القيس بن حجر الكندي، ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، 1984

-أوس بن حجر، ديوان أوس بن حجر، تح: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د . ط)، 1980

-باسو أوجبور، إمل شيل، الذاكرة الجماعية، تر: لحسن آيت الفقيه، منشورات جمعية أخيام، العراق، بدون سنة نشر

-تيرنيس دبليون. ديكون، الإنسان – اللغة – الرمز (التطور المشترك للغة والمخ، ترجمة: شوقي جلال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، العدد: 2312، 2002

-جرير بن عطية الخطفى، ديوان جرير بن عطية بشرح محمد بن حبيب، تح: د. نعمان محمد أمين، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1989

-جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار السلفي، بيروت، لبنان، ط4، 2001

-جوستاف لوبون، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر والتوزيع، وول ستريت هاوس، المملكة المتحدة، ط1، 2017

-الحسن بن سهل أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين (الشعر والنثر)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم – علي محمد البجاوي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1959

-صالح بشري موسى، الصورة الشعرية في النقد العربيّ الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994

-طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد شرحه وقدم له: مهدي ناصر الدين الأسد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002

-عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعِها، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998

-عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمَّى بـ(العبر وديوان المبتدأ والخبر)، تح: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1981

-عبد الكريم النهشلي القيرواني، الممتع في صنعةِ الشعرِ، تح: د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط1، 1999

-علي بن الجهم، ديوان علي بن الجهم، جمع وتحقيق: خليل مردم بك، منشورات وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، ط1، 1989

-عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، دار العلم للملايين، ط3، 1988،

-عنترة بن عمرو العبسي، أشعار عنترة العبسي، جمع وتحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1959

-مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، مؤسسة هنداوي، وول ستريت هاوس، المملكة المتحدة، ط1، 2017

-مقالات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، تر: د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979

-موريس هالبفاكس، الذاكرة الجمعية، تر: د. لطفي عيسى، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، ط1، 2022

- والترج. أونج، الشفاهية والكتابية، تر: د. حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عد: 182، 1994